

سمائف مطرية :

١ - من أخلاق البحري

علاقته بالخلفاء

للإستاذ محمد رجب البيومي

لأبي عبادة البحري عند أدباء المربية مكانة رفيعة لا يتطلع إليها أبداً الناس أملاً في نباهة الذكر ، واستفاضة الشهرة ، فهو أحد الثلاثة الذين رزقوا من الحظوة والديوان ما جعل صداه في كل زمان ، على أن الوليد أعظمهم تأميراً وأكثرهم أنصاراً ، نظراً لديباخته الناصحة ، وسلاسته المترفة ، ووضوح معانيه وضوحاً يصل بها إلى أعماق القلوب بمجرد النظرة الأولى ، ولا كذلك أبو تمام والمتنبي ، فالأول مفرق في النموض والالتواء ، والثاني مولع بمخالفة أهواء الناس ، وحسبك أن يقول أبو الملاء — وهو أبداً الناس عن مذهب الوليد — « أبو تمام والمتنبي حكيمان وإنما الشاعر البحري » !

ولقد تناول شعره بالنقد والتحليل طائفة ممتازة من أرباب الأقلام الناضجة فقالوا فيه ماشاء لهم تفكيرهم واستنتاجهم ، فن متمصب له كالآمدى ، ومن متمصب عليه كالصولي ، ومن متجرد عن الميول والأهواء كابن الأثير ، ومهما يكن من شيء فقد خرج الأدب من هذا التطاحن المحمود بثروة كبيرة تميز بها المكتبة المربية على مر الأقطاب . وإن من التريب أن يففل هؤلاء جميعاً عن دراسة أخلاق البحري دراسة تبرزه على حقيقته أمام الجمهور ، اللهم إلا شذرات يسيرة في مختلف الأسفار لا تشبع شهمة راغب في البحث ، أمل في الوصول إلى نتيجة واضحة يفهم على ضوئها شعر البحري كما يجب أن يكون الفهم والاستنتاج !

على أني آسف كل الأسف لهذه الحقيقة المؤلمة التي اهتديت إليها بعد بحث جهيد ، والتي تصور لنا البحري خبيث الطبع ، لئيم السكر ، ملتهب الحقد ، وهذا يتجلى بوضوح تام في مختلف علاقته بالناس من خلفاء وشعراء وأصدقاء ، بل في علاقته بأقاربه وأهل بيته وهم أولى الناس بمطهه وإشفاقه ، لو كان في قلب الوليد إثارة من عطف وإشفاق !

ونظرة واحدة إلى ديوانه تريك العجب العاجب من وفلته

لا أتكلف فيها تناول شيء أو تجنب آخر مادمت في حدود القانون الصحي العام ، وأني عند ما أعمد إلى العلاج أراني أتداوى « بالتي كانت هي الداء »^(١) على فرق ما بيني وبين أبي نواس من اللذة والألم والنشوة والحسرة ، ومن أن كأسه تداوى والذي كنت فيه يدي^(٢) .

وبعد ، فهذه قصتي مع ضغط الدم ، سقتها هنا بدافع الرغبة في التعبير الأدبي عن تجارب تضمنت أحاسيس وانفعالات ، ولعل فيها إلى ذلك مادة تنفع من وقع في مثل ما وقعت فيه ، أو تمنع من يوشك أن يقع ، أو تحمل العبرة إلى من يعتبر من بعيد .

عباس مساره مخضر

أو إذا ذهب عني لا يتعادي عن مشيراته شعرت بأنني في حالة عادية لا يشوبها أي كدر ، ولكن ما بالي لم أشعر بشيء من قبل ولا من بعد ؟ أم أنا يوم خصني طبيب الشركة وقاس ضغطي لأول مرة كنت متغير المزاج لأي سبب بأن وقع لي قبيل الفحص ما جعل مشير المقياس يرتفع إلى رقم ما كان يبلغه لو كنت في حالة عادية ، ثم استقرت الفكرة في نفسي بعد ذلك بحيث يسبب الشعور بها عند كل مناسبة ارتقاءً في الضغط ؟ وعلى ذلك أستطيع أن أفرض أن كثيراً من الناس أصيب به عند مشاهدت عيناه القهاس الأسود يلف على ذراعه لأول مرة ، وصارت رؤيته بعد ذلك تبعث الوسواس وتجلب الأكداد .

ولا أعني بالوصول إلى نتيجة حاسمة في ذلك ، فلا سييل إليها أولاً ، لعدم الانسجام بين راحة بالي وبين مقياس الضغط . والأمور الثاني الذي يصرفني عن تحقق وجود ارتفاع الضغط هو أنني عرفت أن أوفق شيء لي أن أحيا حياة صحيحة عادية ،

(١) من بيت أبي نواس المجهول في الحر :

دع عنك لومي فإن القوم لغراء ودأوني بالتي كانت هي الداء

(٢) يصيب بالداء .

أقول : تقرأ هاتين القصيدتين فتجدهما متوافقتين لفظاً ومعنى في كثير من الآيات . ولك أن تستنتج من هذا حكمتك على ضمير البحرى الفاسد ، وحرصه على ابتذال الأموال بما تنكره سرورة الأخلاق .

ولننظر أولاً إلى علاقته بالخلفاء لنعرف إلى أى مدى سفل الوليد ، فإصان عهداً ولا حفظ إلا ، حتى مع المترك على الله ، ذلك الخليفة المطاء الذى أدناه من مجلسه وأخرقه في طوفان من حياته ، واختاره نديماً على بساط الشراب إلى أن لقي حتفه وهو في ندوته يجاذبه أطراف السمر مع الفتح بن خاقان ، وحين حلت الكارثة قام الوزير الشجاع بما يفرضه عليه واجب الشهامة والرجولة ففاضت روحه قبل سيده ، وفر البحرى إلى حمام مهجور بقصر القاطول فاختبأ فيه وبعد ذلك جاء يكذب على الناس فيقول في اختلاق ذميم :

أدافع عنه بالدين ولم يكن ليثنى الأعدى أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي
دري القاتك المعجلان كيف أساوره
مع أن البحرى لو كان صادقاً في قوله لصرع لساعته كما صرع
الفتح بن خاقان شهيد الروة والوفاء !

ونحن لا نبالغ في مؤاخضة البحرى على فراره هذا فقله ممن لا يلقون بأيديهم إلى الهلكة . ولكننا نبالغ في مؤاخضته على هجائه التوكل بعد مصرعه برغم ما غمره به من خير عميم ، فقد قال في مدح المنتصر قاتل التوكل المارق :

حججنا البنية شكراً لما حباياه الله في المنتصر
تلافى البرية من فتنة أظلمو ليها المتكر
ولما ادلمت دياجيرها تبلج فيها مكان القمر
ولو كان غيرك لم ينتهض بتلك الخطوب ولم يقتدر
رددت المظالم واسترجعت يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبي طالب بعدما أذيع بسريهمو فابذعر
ونالت أياديهمو جفوة تكاد السماء لها تنفطر
بقيت إمام الهدى للهدى تجدد من نهجه ما اندثر
ومعلوم أن التوكل هو الذى غالى في قهر آل أبي طالب ! !

وغدرة فهو يمدح الرجل ويذمه سرات عديدة لا لأنه يستحق المدح أو الذم مثلاً ، فذلك مقبول ، بل لأنه جادل بالمال فدحه ثم أبطأ قليلاً في سببه فأقذع في هجوه ، غير متذكر ما طوق به جيده قبل ذلك ، بل لقد وصل به التناكر والجحود إلى أن جعل شعره محلاً تجارياً يأخذ منه ما يلزمه إبان حاجته فهو — كما يقول صاحب الموشح — يمدح الإنسان بتحفة خالدة من رائحة الشعر ثم يعرض له بعد تناسل الأيام أن يمدح محسناً آخر فيدفعه لؤمه إلى أن يعمد إلى شعره الذى قاله في الممدوح الأول فيغير ما يحتاج إلى تغيير من الأسماء والألقاب ثم يسرق القصيدة برمها إلى الممدوح الثانى ، وهذه طريقة مقيتة وقع فيها المتنبي أيضاً فقد مدح أبا الفضل وزير كافور الأخشيدي بقصيدة :

بارد هواك صبرت أم لم تصبرا
وكان منها :

صنت السوار لأى كف بشرت بابن الفرات وأى عبد كبرا
ولما لم يثبه أبو الفضل عليها صرفها عنه وتحول إلى ابن
العميد فدحه بها بعد أن غير كلمة ابن الفرات بابن العميد ثم أردفها
بزيادة يسيرة تتضمن جاباً من أوصاف ابن العميد (١) ... وإذا
كان المتنبي قد وقع في ذلك مرة واحدة فقد كان البحرى غارقاً
في هذه العادة إلى أذنه ، حتى أنه كرر هذه الجريمة الأدبية إحدى
وعشرين مرة (٢) وكان الله عز وجل أراد أن يكشفه للناس على
حالته ، فبالرغم من تحفظ ولده أبي الغوث عن الوقوع فيما يدل
على ذلك حين جمع ديوان والده فقد ذكر له قصيدتين متشابهتين
في أكثر الآيات فانت تقرأ اللامية التى مدح بها التوكل على
الله ومطلما :

قف العيس قد أدنى خطاها كلاها

وسل دار سمدى إن شفاك سؤلها

ثم تقرأ قصيدته التى مدح بها إبراهيم بن الدبر ومطلما :

وقوفك في أطلالم وسؤلها

يربك غروب الدمع كيف انهماها

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) الموشح للمرياني .

فهل يليق أولاً أن يمدح قائله ؟ ! وهل يليق ثانياً أن يمرض بهجاءه ولى نعمته الأول فيقول إن الفتنة أظلمت دياجيرها في عهده وأن الهدى قد اندثر على يده ؟ إن هذا لثريد .

على أن البهتري لدناءة أصله ، وخسة طبعه لم يلبث أن قلب للمنتصر — ولى نعمته الثانى — ظهر الحين ، فهجاء هجاء مراراً بعد مقتله ، ثم انقلب إلى الخليفة الجديد المستعين بالله يتزلف إليه ويمدحه حتى يستنزف أموال خزائنه فهو يقول متظاهراً بالولاء والإخلاص :

لقد نصر الإمام على الأعدى وأضحى الملك موطود المهاد
أمير المؤمنين اسلم قدما نفيت النى عتا بالرشاد
تدارك عدلك الدنيا فقرت وعم نذاك آفاق البلاد
ولقد هبت في عهد المستعين بالله زعازع جديدة تنبئ بزوال
دولته نظراً لقوة أنصار المعز بالله غريمه الأول ومتافه الأولد
فراى البهتري أن يحتاط لنفسه فأرسل للمعز فى سجنه قصيدة تنبئ عن ولائه ، وكان قد قالها قبل ذلك فى حبس سعيد بن يوسف ولكنه كما قلنا — فيما تقدم — شاعر تجارى يتصرف فى شمره كما شاء ، ومما جاء فى هذه القصيدة :

جعلنا فداك ، الدهر ليس بمنفك

من الحادث الشكو والنازل المشكى

وقد هذبتك الحادثات وإنما

صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك

على أنه قد ضم فى حبسك الهدى

وأضحى بك الإسلام فى قبضة الشرك

أما فى نبي الله يوسف أسوة لتلك محبوس على الجور والإفك

أقام جيل الصبر فى السجن برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وكأنى بالبهتري وقد خاف أن يعلم المستعين بالله نبأ هذه الرسالة

فتقدم إليه بقصيدة عصماء مظهرأ ولاده ووقاه قاتلا فى دياجبة

مشرقة وأسلوب سلس :

بقيت مسلماً للمسلمينا وعشت خليفة لله فينا

فقد أنسيتنا بذلا وعدلا أبوتك الهداة الراشدين

أراد الله أن تبقي معانا فقدّر أن تسمى مستمعينا

إذا الخلفاء عدوا يوم نحر سبقت سراهم سيقاً مبينا

وقيتاك النون وإن حفظاً لنا فى أن نوبيك النونا
وبعد أن أمن على نفسه من ناحية المستعين أخذ يرأسل المعز بالله من جديد فهو يقول فى غاطبة غلامه نائل :

الأهل يرجع العيش لنا مثل الذى كانا

وهل ترجع يا نائل بالمعز دنيانا

عدمت الجسد اللقى على كرسى سليمان

فقد أصبح للعة نقلاه وبقلانا

والجسد اللقى على كرسى سليمان هو المستعين بالله الذى قربه

من مجلسه وغمره بنوالة . ولما دارت الدوائر على المستعين وقتل فى

قصره تحت جنح الظلام ، أخذ البهتري بضحك لآماله ، وسار

من فوره إلى المعز بالله معتمداً على ما كان بينهما من مراسلة خفية

ثم مدحه بقصيدة طويلة عرج فيها على المستعين — ولى نعمته

الثالث — فسلقه بلسان حاد ولصق به جميع التالاب حتى جرده

من إنسانيته فهو يقول فى هجائه :

متى أسل الديان أن تصطلى له عرى التاج أوتثني عليه عصائبه

وكيف ادعى حق الخلافة غاصب حوى دونه إرث النبي أقاربه

بكى المنبر الشرقى إذ خار فوقه على الناس ثور قد تدلت غباغبه

ثقل على جنب الثريد مراقب لشخص الخوان يبتدى فيوائبه

إذا ما احتشى من حاضر الزاد لم ييل

أضاء شهاب الملك أم كل ثاقبه

تخطى إلى الأمر الذى ليس أهله فطوراً ينازبه وطوراً يشاغبه

رمى بالقصيب عتوة وهو صاغر وعمرى من برد النبي مناكبه

وقد سرنى أن قيل وجته مسرعاً إلى الشرق تحدى سفنه وركائبه

إلى دسكر خلف الدجاج ولم تكن

لتنشب إلا فى الدجاج غصابه

ثم أخذ يكرر هجاءه ثانية وثالثة ورابعة وما ذاك إلا ليحوز

قبول المعز بالله ! فىا لضيعة الوفاء (١) ...

ولقد كان مصير من سبقه من الخلفاء فى هذا العهد الأحمر

(١) البهتري فى مدح المعز قصيدة مطلها .

حذرت الحب لو أغنى حذارى ورميت الفز لو نجى فرارى
ولقد مجا فيها المستعين هجاء فاحشاً استنحى أن أنسر شيئاً منه على
منحلت الرسالة ، ولا أدرى كيف تحملها إذن للمعز بالله حين أنشدها له ؟ !

ياناصر الدين انتصر موشكا من كائد الدين ومقتاله
فهو حلال الدم والمال إن نظرت في مسائر أحواله
والرأى كل الرأى في قتله بالسيف واستصفاء أمواله
ثم قال ابن طاهر كأن ابن العليجة فقيه يفتي الخلفاء في قتل
الناس ! نرحه الله »

هذه علاقة البحرى الحزينة مع أولياء نعمته ، ولقد كان في
حاجة إلى من يذكره بقصة صعصعة بن غالب حين بلغه موت الوليد
ابن عبد الملك ، فقال : لعنه الله وأخزاه ! لقد سبني مرة أمام حشمه
وخوله ، وكان والده غالب حاضراً فقال : يا بني لقد رفعت من
ذكر الوليد إذ ذكرت سلطانه عليك ، وخفضت من شأنك إذ
نهتتنا إلى منزلتك لدى الخليفة وأنت سيد قومك ، فلا تفضح
نفسك بهجاء رؤسائك أمام الناس !! »

محمد رجب البيومي

(يتبع)

إدارة الهندسة الفروية بالتوفيق

تعلن عن وجود وظيفتين خاليتين
لمهندسين من حملة بكالوريوس كلية
الهندسة القسم المدني أو العمارة أو الفنون
الجميلة العليا قسم العمارة . وأيضاً عن
وجود ثلاث وظائف خالية لمساعدى
مهندسين من حملة دبلوم الفنون
والصناعات أو الهندسة التطبيقية العليا
إن رغبوا .

والتمين على اعتمادات الباب الثالث
بمقدود مؤقته بأول مربوط الدرجة
السادسة للمهندسين وبأول مربوط الدرجة
السابعة لمساعدتهم مع إعانة الفناء
القررة وتقديم الطلبات على الاستمارة
١٦٧ ع. ح لتأية آخر سبتمبر سنة ١٩٤٦

٥٩٦٤

الذى فاضت فيه دجلة بدماء الخلفاء ، حتى كان تمييز الخليفة حكماً
عليه بالإعدام ، فهو ينتظر تنفيذه بالليل ، فإذا أخطأ رقبه بالنهار ؟!
ولعمري أى خطأ شنيع وقع فيه المحتشم حين اسطفى هذه الشرذمة
السافلة من غوغاء الأتراك ليدفع بها سلاطة النرس على قلة شرهم -
فكان كالمتعجب من الرمضاء بالنار ، وعسى أن يحبوا شيئاً
وهو شر لكم !

وما إن عرف البحرى مصرع المعز حتى توجه كمادته إلى غريمه
الجديد ، يمدحه ويستدر عطفه . وما في ذلك عيب ، ولكن العيب
كل العيب في ترفيضه الشنيع بهجاء المعز - ولى نعمته الرابع
- محاولاً أن يشفى بذلك غلة الممدوح ، ولو طال أمد البحرى
إلى الآن لوجدناه يحرص على تمثيل هذا النظر القبيح مع من
يتعاقب على الدول من ملوك وخلفاء

وليت شمري كيف عصى الخلفاء عن تلاعب البحرى بهم
هذا التلاعب المقيت ، فلم ينتهوا إلى غدرة القاحش ، فيقفلوا
أبوابهم في وجهه على أقل تقدير ، ولكنه الحظ الذى ستر مثالبه ،
وأطبق الميون عن غمازيه ، فجعل كل خليفة يتسهم له ناسياً ما ارتكبه
في حق زميله السابق من غدرة وعقوب ، ولقد كان أبو تمام أولى
بهذه الخطوة لدى الخلفاء ، لما نعرفه من تبل أخلاقه ، وكرم
خلاله ، إلا أن السعادة التى احتضنت البحرى قد ناصبت حبيماً
المداء ! ! فقد مدح المعتصم بقصيدتين خالدين ثم رجع ولم يظهر
بطائل رغم شفاعاة أحمد بن أبي دؤاد ! !

والحظ يقسم عاش بشر ما اشكى بصراً وعمراً أكها بشار !
على أن له مع أحمد بن الخصيب موقفاً كواقفه مع الخلفاء سواء
بسواء ، قال صاحب الموشح « حدثني أحمد بن أبي طاهر فقال :
ما رأيت أقل وفاء من البحرى ولا أسقط ، رأيت قائماً ينشد
أحمد بن الخصيب مدحاً له فيه ، خلف عليه ليجلس ، ثم وصله
واسترضى له المنتصر وكان غاضباً عليه ، وأخذ له منه مالا فدفعه
إليه ، ولما نكب المستعين أحمد بن الخصيب بعد كرمه هذا رأيت
البحرى ينشده

لابن الخصيب الويل كيف انبرى بانفك الردى وإبطاله
قد أسخط الله بإعزازة الدنيا وأرضهاها بإذلاله